كيف تربت الجماعة الأولى (٤)

الأخ محمد قطب

وكان القرآن يندد بأخلاق الجاهلية المنتكسة ومفاهيمها الجاهلة الهابطة ، ويضع في مقابلها الأخلاق الإيمانية الـــتي ينبغي أن يكون عليها البشر السوي ، الذي كرمه الله وفضله ، وهداه النجدين ، وأعطـــاه القـــدرة علـــى التمييـــز والاختيار :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَـــابَ مَـــنْ دَسَّـــاهَا ﴾ [الشمس : ٧-١٠]

وبعض السور تكاد أن تكون (متخصصة) في هذا الأمر . فسورة الفجر تندد بأخلاق الجاهلية ، وسورة الإســـراء تفصل الأخلاق الإيمانية المطلوبة من المؤمنين .. وسور أخرى تعرض لهذه الموضوعات في أثناء السياق .

والجانب التربوي من هذا الموضوع واضح بلا شك . فكلها توجيهات أخلاقية ، ومن ثم فهي توجيهات تربوية . وهي متصلة بالعقيدة في ذات الوقت . فهذه العقيدة الإسلامية ليست نظرية تحفظ ، وليست لاهوتاً يدرس ، إنما هي واقع سلوكي معين لا بد أن يرى أثره في واقع الأرض . ومن ثم كانت لها (أخلاقيات) متصلة بها ومنبثقة عنها .

أخلاقيات تشمل الحياة كلها وتضع لها منهجاً مفصلاً ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلاقـــات الجنـــسين وعلاقات الأسرة ، وعلاقات السلم وعلاقات الحرب .. وفي كل مجال من مجالات الحياة . وكانت مهمـــة التربيـــة الإسلامية المرتكزة على توجيهات القرآن وتوجيهات الرسول ﷺ هي ترسيخ قواعد هذه الأخلاقيـــات والتـــدريب الدائم عليها ، حتى تصبح عادة للإنسان يقوم بها دون جهد ، ويتوجه إليها من تلقاء نفسه في كل عمل يقوم بـــه ، ولكل عمل على الإطلاق أخلاقيات حددها القرآن أو حددها الرسول ﷺ في توجيهاته للمؤمنين .

* * *

كان القرآن المكي يتنـــزل بهذه المعاني التربوية العقيدية ، وكان الرسول ﷺ يحدثهم عن الله عزَّ وجلَّ ، ويرســـخ في نفوسهم جلال عظمته ويبين لهم في شخصه الكريم كيف تكون العبوديـــة الخالـــصة لله ، تـــسليماً مطلقـــاً لله ، وخضوعاً كاملاً لأوامره وتوجيهاته ، وتوقيراً خالصاً لذاته العلوية ، وذكراً وتسبيحاً ، وتطلعاً دائماً بالخشية والحب ، وربطاً لكل شيء في هذا الكون بإرادته ومشيئته ، ورؤيةً لقدرته القادرة في كل ذرة من ذرات هذا الكون .

كما كان ﷺ يحدثهم عن اليوم الآخر وأهوال الحشر ، وما ينتظر الكفار فيه من ألوان العذاب البشع ، وما ينتظر المؤمنين من ألوان المتاع التي لا تخطر على قلب بشر ، ويعلمهم أن طاعة الله ورسوله هي الطريق إلى هذا المتاع الخالد الدائم ، وأن الكفر بالله ورسوله هو طريق النار . وكانت أحاديثه التفصيلية عن يوم الحشر وأنواع العذاب وألـــوان النعيم تزيد الصورة القرآنية تجسداً في وجدانهم ، فيعيشونها اللحظة كأنما يرونها رأي العين ، وتنفعل بهـــا نفوســـهم فيعيشون في خشية من ذلك اليوم الرهيب .

وكان يحدثهم كثيراً عن أخلاقيات لا إله إلاّ الله ويعاود تذكيرهم بها ، ويتابع ممارستهم لها ، ويقوّم ما يحتاج إلى تقويم في تلك الممارسة العملية ، ذلك أن المربي العظيم يعلم أن هذا الأمر في حاجة إلى تذكير وتوكيـــد ، ومتابعـــة دائمة ، فإن الإنسان إذا ترك وحده عرضة لأن ينسى ، وعرضة لأن تغلبه النفس الأمارة بالسوء ، حتى ينتـــهي بهـــا التذكير الدائم والممارسة الفعلية لأن تصبح هي النفس اللوامة التي تقوم من تلقاء ذاتها بتذكير صاحبها ومتابعته .

وكان المربي العظيم يعلم كذلك أن الإيمان يمكن أن يتم في لحظة ، لأنه مسألة بصيرة تنفتح فترى الحق فتـــسارع إليه . وأنه لا يرتبط بإلف ولا عادة ولا ترتيب سابق . وأنه ليس له إلاّ إحدى حالتين : إما أن يوجد وإما ألا يوجد . أما الأخلاق فهي أمر آخر ، يحتاج إلى تعويد طويل حتى يصبح عادة تلقائية . ويحتاج إلى عمل دائب لغسل رواسب الجاهلية من النفس ، وهي رواسب لا تذوب في لحظة ! لأنها متشابكة مع خيوط النفس وداخلة في بنائها . كالبقعـــة الداخلة في النسيج ، ربما تغسلها مرة فتذهب . وربما تحتاج إلى غسلات كثيرة تذهب . وربما تظل تغسلها حتى يبلى الثوب وهي تخف قليلاً ولكنها لا تذوب !

كان المربي الملهم يعلم ذلك من النفس البشرية فيصبر على أصحابه ، ولا يتعجل جذبهم إلى القمة التي يقف هـــو عليها بعون من الله ، كما قال عن نفسه ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ضعيف الجامع بـــرقم ٢٤٩ ، وكـــان يتخولهم بالنصيحة المرة تلو المرة في غير إملالٍ مضجر ولا تهاون في أمر الله ..

وسارت هكذا الأمور حتى جاء الابتلاء .. وما كان من الممكن ألا يجيء !

إنّ الجاهلية لا يمكن أن تصبر أبداً على دعوة لا إله إلاّ الله ! و لم يحدث قط في التاريخ أن جاهليةً صبرت على هذه الدعوة أو هادنتها ولو لم تتعرض الدعوة لها بشيء من جانبها !

لقد قال لهم شعيب : ﴿ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۞ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ... ﴾ [الأعراف : ٨٧-٨٨]

هكذا .. لا يقبلون حتى المهادنة حتى يحكم الله في الأمر ..

وهذا الموقف الذي تقفه الجاهلية دائماً –ولا بد أن تقفه ما دامت جاهلية !– لا يأتي اعتباطـاً ، ولا يـأتي مـن ظروف محلية خاصة بالمكان أو الزمان أو البيئة أو أشخاص الحكام أو أشخاص الدعاة . إنما يأتي من طبيعة الـدعوة ذاتها ومن طبيعة الجاهلية .

فما الدعوة ؟ وما الجاهلية ؟

الدعوة تقول لا إله إلاّ الله .. والجاهلية تقول –بقولها أو فعلها– هناك آلهة مع الله ، وهناك سلطان بشري يحكـم الناس باسم هذه الآلهة المدعاة .

والدعوة تقول إنّ الولاء وحده . و(الملأ) صاحب السلطان في الجاهلية يريد الولاء لنفسه وسلطانه ، ومـن هنـا ينشأ الصراع .

إنّ الجاهلية ، أو الملأ صاحب السلطان في الجاهلية ، يحس تجاه النبي القادم بلا إله إلاّ الله ، كما يحـس الـسارق المغتصب حين يرى رجل الشرطة يظهر في الطريق . يحس أنه قادم نحوه هو بالذات ليسترد الـسلطان المغتـصب .. سلطان الله . ومن ثم لا يستطيع أن يهادنه أو يسكت على وجوده ، طالما بقيت في يده بقية من سلطان !

والابتلاء الناشئ من عدوان الجاهلية على الرسول الآتي بلا إله إلاّ الله وعلى الذين آمنوا معه يصبح بذلك سنة من سنن الدعوة .. سنة ربانية لا تتبدل ولا تتخلف :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّـذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢-٣]

ونحن الآن نتحدث في مجال التربية ..

هل لا بد من الابتلاء في الدعوة ؟ هل هو ضرورة (تربوية) للقائمين بالدعوة للا إله إلاّ الله ؟!

إنها سنة ، نعم ، ناشئة من طبيعة الدعوة وطبيعة الجاهلية . ولكنها ما دورها في (منهج التربية الإسلاميّة) ؟!

لقد علم الله أنها ضرورة لازمة لتربية الجيل الأول على الأقل ، الذي يحمل على أكتافه مسؤولية التأسيس وإقامـة البناء ، فجعلها سنة دائمة مع ذلك الجيل الأول بالذات !

إنّ العجينة البشرية كما أسلفنا عجينة عصية . وإنه لا يكفي أن تضعها مرة في داخل القالب المـضبوط لتـستقر وحدها هناك ! إنها دائمة التقلب والبروز من هنا ومن هناك بتأثير الدوافع القوية والجواذب العنيفة التي تجـذبها نحـو الأرض وتحركها فيها .

والدعاة بالذات .. أو الجيل الأول من الدعاة بالذات ، يحتاج إلى صياغة خاصة ليحمل تكاليف الحــق . وإنهــا لتكاليف مرهقة تحتاج إلى تدريب وإعداد خاص ..

إنها ليست نزهة مسلية ، ولا عرضاً قريباً ، ولا سفراً قاصدا ..

إنها الدعوة ..

إنها تشييد بناء متين يستظل فيه الناس بظل الله في الأرض ، ويستروحون فيه عدله ورحمتــه ، في ظــل تحكــيم شريعته ..

بناء يقام لله .. ويكون الحكم فيه لله . لا لشخص من الأشخاص ولا لمصلحة من المصالح ولا لهوى من الأهواء .

ثم إنه بناء في حاجة إلى حماية ووقاية من الأعداء ، الذين يكرهون لا إله إلاّ الله ، لأنها تسلبهم سلطانهم المغتصب وترده إلى الله ، أو لأنها تضبطهم بميزان الله ، وهم يريدون الانفلات بما تمليه عليهم الشهوات ..

فمن أين لهذه العجينة الطرية العصية أن تخلص من نوازعها وجواذبها وهواتفها التي لا تفتأ تخرجها مــن قالبــها المضبوط ، وتبرز بها من هنا ومن هناك ، لتستقيم على وضعها المنضبط ، حتى تقيم العدل الرباني في الأرض ، لا تميل به المصلحة ولا الهوى ولا الرغبات ؟!

ثم أين لهذه العجينة الطرية العصية أن تصلب وتنضبط لتحتمل تكاليف الجهاد ، والجهاد قائم بالضرورة لحمايــة البناء الرباني من الأعداء ؟!

أفي الرخاء تتحول هذه العجينة إلى صورتها المنضبطة في القالب المطلوب ؟

يعلم الله أن ذلك لا يكون ..

إنّ العجينة الناضجة (على البارد) لا تحتمل الضغط ولا تثبت للصدام .. وسرعان ما تتفلق من هنا وهناك !

لا بد من صناعة خاصة لأولئك الذين يقومون بالدور الأول إزاء الجاهلية ، ويؤسسون للبناء ..

وكما تحتاج العجينة إلى حرارة النار لإنضاجها ، فكذلك تحتاج العجينة البشرية إلى حر الابتلاء ..

في حر الابتلاء تثبت العجينة الطرية العصية وتصلب ، وتصبح قادرة على الصمود والصدام ..

وفي حر الابتلاء كذلك تترسخ العقيدة وتمتد جذورها في النفس حتى تتمكن منها ، ولا تعود تقتلع أبــداً مهمــا اشتدت بها العواصف بعد .

إنّ الإيمان في الرخاء سهل ، لأنه لا يكلف صاحبه كثيراً ، ولا يهدده في أمنه وسلامته . ولكن حقيقة الإيمــان لا تتبين –حتى لصاحبها– إلاّ بالابتلاء . كما تدق المسمار في الحائط فتحسبه راسخاً لأول وهلة ما دام ثابتاً في مكانه ، ولكنك لا تأمن عليه حتى تختبره ، فتضغط عليه بأصبعك أو تحاول انتزاعه .. ثم لا تعلق عليه شيئاً إلاّ إذا ثبت بعــد الاختبار !

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِــنْ دُونِ اللَّــهِ وَلا رَسُــولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ... ﴾ [التوبة : ١٦]

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ... ﴾ [العنكبوت : ١٠]

كلا لا بد من الابتلاء .. لترسيخ العقيدة ذاتها استعداداً لإقامة البناء ..

تقول عقيدة لا إله إلاّ الله : إنّ الله هو الضار النافع وحده ، وإنه هو المسيطر وهو المدبر بغير شــريك وإنــه لا يحدث شيء في الأرض إلاّ بما أراده الله .. ويؤمن الناس بذل إيماناً سهلاً في الرخاء ، ويحسبون هذا الإيمان راســخاً ، ويحسبونه قضية منتهية لا تحتاج إلى مراجعة ..

ثم .. يحدث الابتلاء .

ويصبح أهل الحق في موقف الضعيف والهوان والذلة . وأهل الباطل في موقف السيطرة الكاملة والاستعلاء ، وفي موقف العدوان كذلك والإيذاء ..

أو ما زال ذلك (المؤمن) يؤمن بأن الله هو الضار النافع وحده ؟! أم ترسب الشك إلى نفــسه دون أن يحــس ، وحسب أن أولئك الطغاة يملكون سلطة حقيقية في أيديهم ، ويملكون بأنفسهم الضر والنفع له أو لغيره من الناس ؟!

فأما إن ثبت في مكانه ، واستيقن أن ما يصيبه من الضرر على أيدي هؤلاء إنما يصيبه بإرادة الله ومشيئته لا بإرادة هؤلاء ومشيئتهم ، وأن هؤلاء لا يملكون له ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرا .. أما إن حدث ذلك فقد آمن حقـــاً أن الله هو الضار النافع وحده .. وأما إن تزلزل يقينه ، ونظر إلى أولئك الطغاة كمن يملك التصرف في شـــيء مـــن عنـــد أنفسهم .. فهو إذن غير صالح لإقامة البناء ! وكان من الحكمة أن ينكشف قبل إقامة البناء بالفعل ، لأنه يومئذ كان يؤسس على باطل ويبني غير مستقيم !

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِـــيُطْلِعَكُمْ عَلَـــى الْغَيْبِ ... ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

فلن يقول لكم الله سلفاً إنّ هذا طيب وهذا خبيث . إنما يبتليكم فيميز الطيب من الخبيث !

وتقول عقيدة لا إله إلاّ الله : إنّ الله هو الرزاق وحده .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨]

ويؤمن الناس بذلك في سهولة في أثناء الرخاء .. فأرزاقهم جارية على حالها لم يمسسها سوء . فالله هو الرزاق ذو القوة المتين !

ثم يحدث الابتلاء ، ويبتلى الإنسان في رزقه نتيجة تمسكه بعقيدته ، وإبائه أن يتركها ويعود في ملة الجاهلية ..

أو ما زال ذلك (المؤمن) يؤمن بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ؟ أم تزلزل إيمانه وظن أن أولئك الطغاة يملكون شيئاً من الرزق ، ويستطيعون أن يقطعوه أو يطلقوه ؟

فأما إن ثبت في مكانه ، وعلم أن ما أصابه في رزقه لم يكن بسبب سلطة ذاتية يملكها الطغاة ، ولكن لأن الله أراد ذلك الابتلاء لحكمة يريدها ، فقد آمن حقاً أن الله هو الرزاق وحده . وأما إن تزلزل يقينه فما عاد صـــالحاً لإقامـــة البناء !

وهكذا .. وهكذا من تفصيلات العقيدة وفروع الإيمان .. لا يتبين الإيمان على حقيقته إلاّ بالابتلاء في كل معـــنى من معاني هذه العقيدة ، ولو بدت –في الرخاء– راسخة متينة لا تتزعزع .

وكذلك الأمر في أخلاقيات لا إله إلاّ الله ..

ما أيسر الخلق الحسن في الرخاء ! إنه قد لا يكلف شيئاً إلى مجاملات قليلة يبدو الإنسان بعدها غايــة في حــسن الأخلاق !

بل قد يُخْدَع الإنسان ذاته في نفسه ، فيحسب أنه صادق التخلق بأخلاق لا إله إلاّ الله ..

ثم تجيء الشدة والحرج والكرب والضيق ..

أو ما زال ذلك (المؤمن) على استعداد لأن يبذل من نفسه في الضيق ما كان يبذله في الرخاء ؟

أو ما زال قادراً على احتمال أخطاء الناس وتصرفاتهم المنحرفة ؟

وحين يكون هناك اثنان ، وفرصة واحدة ، فرصة لاحت بعد كرب وشدة وحرج .. فهل يسرع هو إلى اقتناصها مؤثراً نفسه على (أخيه) في العقيدة ، أم ما زالت في نفسه الفسحة التي يستطيع بها -ولو على كره- أن يترك الفرصة لأخيه ، أم إنه يستطيع أن يؤثره على نفسه عن طيب خاطر .. تقرباً إلى الله ؟!

درجات من التخلق بأخلاقيات لا إله إلاّ الله .. لا تتبين حقيقتها في الرخاء السهل .. ولا تنكشف إلاّ في الشدة والضيق ..

من هنا كانت حكمة الابتلاء المذكورة صراحة في آيات القرآن ..

إنّ الجيل الأول من الدعاة ، الذي يكون من قدره أن يواجه الجاهلية بكل عنفها وضراوتها في محاربــة العقيــدة والمؤمنين بها ، حرباً تقصد بها الإبادة الكاملة ولا تقصد بها الإبقاء .. هذا الجيل في حاجة إلى صياغة خاصة ليتحمــل التكاليف ، وهي تكاليف باهظة عنيفة مرهقة ، سواء في مرحلة المواجهة أو مرحلة التمكين حين يقدر الله التمكين ..

فأما المواجهة فهي تعرض الإنسان للاضطهاد والتعذيب وانقطاع الرزق ، كما تهدده في أمنه وسلامته .. وقــد تكلفه حياته ، موتاً في التعذيب أو إبادة بالقتل .

وأما التمكين فهو في حاجة إلى خلوص كامل وتجرد ، لإقامة البناء على العدل الرباني ، لا يميل مع المــصلحة ولا الهوى ولا الشهوات ، وإلاّ انتكس البناء وضاع الجهد ، وانقلبت الدعوة صداً عن سبيل الله :

﴿ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُــمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ٩٤]

وهذه الصياغة الخاصة لا يمكن أن تتم في الرخاء السهل ، إنما تتم في الشدة المحرقة ..

وكما تدرب الجيش المحارب في الصحراء على احتمال العطش والهجير وزوابع الرمل ، وكما تـــدرب الجـــيش المحارب في الصقيع على احتمال أقسى درجات البرد والريح العاصفة المدوية .. فكذلك يتم تدريب الجيل الأول مـــن الدعاة في ذات الجو الذي سيتعرضون له .. فيدخلهم ربهم المحنة رحمة بهم لا غضباً ولا قِلىً لهم .. حتى يعوّدهم على الجهد ، فلا يجهدهم العمل ، ولا يجهدهم الاستمرار فيه ..

إنها الرحمة إذن ، والتربية الربانية .. فضلاً على تمييز الخبيث من الطيب من أول الطريق .

إنه التدريب الرباني على تحمل المشاق ، والإعداد الروحي والنفسي والعقلي والبدني للقيام بأخطر مهمة في هـــذا الكون كله : مهمة إقامة الخلافة الراشدة عن الله في الأرض ..

* * *

ثم إنها فرصة لتدريب من نوع آخر ، ضروري للدعاة بصفة عامة ، وللجيل الأول من الدعوة بصفة خاصة .

إنّ الداعية لا يصلح أن يكون ملتصقاً بالأرض خاضعاً لجواذبها ..

وحين يقوم المجتمع المسلم بالفعل ، فقد يَحْتَمِل وجود أشخاص يلتزمون بأمر الله على حرف ، ويوازنون أنفسهم -بالجهد- إزاء جواذب الأرض . ولكن الجيل الأول الذي يحمل تبعات التأسيس والبناء لا يصلح أن يكون كذلك ، فإن حمله أثقل ومهمته أخطر .

حمله أثقل لأنه يواجه الجاهلية بضراوتها وإصرارها على إبادة الدعوة ، ويواجه احتمالاً راجحاً إن لم يكن أكيـــداً بالتعرض للحرمان من متاع الأرض المباح ، بل للحرمان من حياته ذاتها بكل ما فيها من متاع .

ومهمته أخطر لأنه لا يُطلب منه أن يكون مجرد مسلم عادي . إنما يطلب منه أن يكون نموذجـــاً يحتـــذى ، لأن أنظار الناس متعلقة به تأخذ منه القدوة ، فإن كان هو هابطاً ، أو واقفاً على حرف يكاد يهبط ، فهو نموذج ســـيء وقدوة سيئة .

فلكي يكون قادراً على حمل تلك التبعة الثقيلة بشقيها : مواجهة التكاليف الباهظة بنفس راضية ، والارتفاع إلى مستوى القدوة ، فإنه يلزمه تدريب من نوع خاص ، يتعود فيه على الحرمان من متاع الأرض ، ويتعود فيـــه علـــى التخفف من جواذب الأرض ، والقدرة على الانفلات منها في لحظة حين يدعو إلى ذلك داع .

ومع أن الإيمان باليوم الآخر يصنع صنيعه في النفس المؤمنة ، وييسر عليها احتمال حرمان الأرض في سبيل رضـــا الله ، إلاّ أن الإيمان درجات . والمطلوب لدور البناء والتأسيس ينبغي له أن يكون على الدرجة العليا مـــن الإيمـــان .

وهذا هو الذي يحتاج إلى التدريب الخاص ، حتى يكون –على المستوى العملي– مستعداً للانخلاع من متـــاع الأرض في لحظة ، بلا توجع ولا تحسر ولا لهفة ..

في هذا التدريب الخاص –داخل الابتلاء– يُبْعَد الإنسان عن متاع الأرض على غير اختيار منه .. وقد يكون على غير رضاً منه في مبدأ الأمر ! ثم تمر الأيام وتطول المحنة بالشهور والسنوات .. فماذا يحدث من تحـــولات في داخـــل النفس ؟

إنه –في الحقيقة– يحدث شيء كثير !

يحدث أولاً أن يكتشف الإنسان في نفسه طاقة على الصبر والاحتمال لم يكن يظنها موجودة في نفـــسه ، أو لم يكن يظنها بهذا القدر . وفي هذا تثبيت له على الابتلاء ، وتشجيع له على احتمال مثله إذا تعـــرض لـــه في ظـــرف آخر .. كأي تجربة جديدة قد يخشى الإنسان خوضها ، فإذا خاضها بنجاح لم تعد تكرثه من بعد ، حتى وإن كانت تكلفه الكثير من الجهد ..

ويحدث ثانياً أن يكتشف الإنسان أن كثيراً من (ضرورات) الحياة التي ظنها في الرخاء ضرورة حيـــاة أو مـــوت ليست في الحقيقة كذلك ! فها هو ذا قد حرم منها ومع ذلك لم يمت ! وها هو ذا قد حرم منها ومع ذلك لم يفقـــد من (حجم) الحياة وعمقها كثيراً في نفسه . بل الأصح هو العكس .. لقد زادت حياته غنىً وعمقاً واتساعاً بألوان من المشاعر جديدة ، رفيعة عالية ، ما كان يحسها في الرخاء ولا يتذوق طعمها . وما كان يتأتى له أن يتذوقها لولا هذا الحرمان الإجباري الذي أوقعه فيه الابتلاء على كره منه ! مشاعر وتصورات وأفكار ذات أعماق وأبعاد ، وذات نور وشفافية وإشراق .. حتى وإن كانت قاعدتها هي الألم ، وغذاؤها هو الدموع ..

ويحدث أخيراً أن يرى الحياة الدنيا على حقيقتها ، بحجمها الطبيعي ..

إنّ نفس الإنسان كحسه .. القريب منها تراه أضخم من حقيقته ، والبعيد عنها تراه أقل من حقيقته ..

ضع إصبعك قريباً من عينيك تحجب عنك كل ما وراءها من المرئيات رغم حجمها الصغير .. وأبعـــدها عنـــك تراها على حقيقتها ، ولا تحجب عنك إلاّ خطاً ضئيلاً لا يكاد يؤثر في رؤيتك للأشياء !

والنفس كذلك وهي ملتصقة بالأرض خاشعة لجواذبها .. تراها في حسها ضخمة جداً ، وهائلة جداً ، وحرية بأن يعيش لها الإنسان كل لحظة من لحظات حياته .. ثم تبتعد عنها –أو تبعد عنها قسراً– فتراها على حقيقتها ، وترى ما وراءها مما كانت تحجبه وهي قريبة من الحس .. فتخف الثقلة فلا تعود مقعدة ، وتخف الجذبة فلا تعـــود قـــاهرة ،

وتخف المشغلة فلا تعود همَّ الليل والنهار .. وينطلق الإنسان من إسارها بجهد أيسر .. أو بغير جهد حين يبلغ مــن التدريب مداه ..

تلك دروس التربية في المحنة .. وهي دروس –كما ترى– لازمة للجيل الذي يقوم على أكتافه البناء ؛ الجيل الذي يراد له أن يصنع صناعة خاصة ، سواء في أثناء مواجهة الجاهلية الضارية ، أو بعد ذلك حين يحدث الــتمكين . وفي كلا الحالتين يكون المطلوب نماذج فائقة من البشر ، استطاعت أن تتجرد لله ، وأن تحتمل المشقة في سبيل الله .

* * *

وفي أثناء الابتلاء يتنــزل القرآن المكي بقصص الأنبياء وقصص المكذبين من قبل على مدار التاريخ إلى جانــب المعاني الأخرى التي سردناها من قبل .. وهي دروس في العقيدة ودروس في التربية في ذات الوقت ..

دروس في العقيدة ، تبين أن كل رسول أو نبي إنما جاء بكلمة واحدة لا تتغير : لا إله إلاّ الله . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. فالعقيدة واحدة لا تتغير . عقيدة أزلية واحدة لا يدخل عليها تبديل ولا تحوير .. وتبين أن الجاهليــة كلها وقفت موقفاً واحداً هو الصد عن سبيل الله ، ورفض لا إله إلاّ الله بادئ ذي بدء ، ومحاربة النبي والذين آمنــوا معه بغية التخلص منهم ومن دعوتهم الخطرة على كيانهم وسلطانهم الذي يمارسونه في الأرض بغير حق ، ويستعبدون به الناس لأنفسهم من دون الله . وتبين أخيراً المصير الحتمي للطغاة الذين يحاربون دعوة لا إله إلاّ الله ، إذ يــدمر الله عليهم وينجي رسوله والذين آمنوا معه ويمكن لهم في الأرض ، بعد أن يملي للكفار فيزيدوا في طغيــانهم ، ويغتــروا بانتصارهم المؤقت على دعوة لا إله إلاّ الله فيظنوا أنهم مبيدوها وقاهرون فوقها .. ثم يأخــذهم الله مــن حيــث لا يحتسبون ، وهم في ذروة النصر الوهمي وذروة الانتشاء ..

تلك دروس العقيدة . وهي هي دروس التربية كذلك ، فهي تقول لهم : لستم وحدكم علــى الطريــق . إنمــا سبقتكم أمم ابتليت كما ابتليتم ، وطغى عليها الطغاة كما طغوا عليكم ، فصبروا على الاضطهاد والتعذيب والتشريد والتقتيل . فكونوا كذلك صابرين مثلهم . فهذا سبيل الدعاة وهذا قدرهم ..

ثم هي تقول لهم : إنّ الله هو الذي يقدر ذلك كله .. هو الذي يمدّ للطغاة ، ليزدادوا كفراً على كفرهم ، وليبتلي المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، فرسخوا إيمانكم بالله لتخرجوا ناجين من الابتلاء ، مستحقين عند الله حسن الجزاء .

ثم هي تقول لهم : إنّ الله هو الذي ينهي المحنة حين يحل الموعد المقدور في قدر الله . وإذن فسبيل المــؤمنين هــو الصبر حتى يأتي الله بالتغيير ، وهو التوجه لله والتطلع الدائم إليه أن يكشف الغمة عنهم ويقــرب الفــرج إلــيهم ..

وبذلك يرتبط القلب البشري بالله مزيداً من الارتباط ، ويتربى على التطلع الدائم إليه والتوجه إليه في الكبيرة والصغيرة على السواء .

والرسول ﷺ كذلك يحدثهم في أخبار من كان قبلهم ، وعن صبرهم في الابتلاء ، ويطلب إليهم الثبات والـــصبر والتعلق بالله ، ويعطيهم من نفسه النموذج والقدوة في ذلك كله .. فتمتزج دروس العقيدة ودروس التربية في مـــزيج واحد يصنع في نفوس المؤمنين –دون أن يشعروا– تلك التحولات الضخمة التي حدثت ، فيخرجون من المحنة أصلب عوداً وأمضى ثباتاً ، وقد ترسخت العقيدة في نفوسهم فلم تعد تقتلع ، وترسخ منهج التربية الإسلاميّة في وجـــدانهم فاستقاموا عليه ، وتجردت نفوسهم لله فلم تعد تبغي لنفسها شيئاً إلاّ الوصول لرضوان الله ..

ولما علم الله من قلوبهم ما علم ؛ علم منها إخلاصها وتجردها ، واستقامتها على أمر الله واســـتعدادها للبـــذل في سبيل الله ، أذن الله لرسوله ﷺ في الهجرة ، وبدأت جولة جديدة في منهج التربية الإسلاميّة بعد قيام الدولة في المدينة ..

* * *

في المدينة بدأ دور جديد للجماعة المسلمة ، ودور جديد للتربية الإسلاميّة ، يستند إلى الدور الماضي كله ويضيف إليه .

لقد صارت الجماعة المضطهدة المستضعفة المطاردة الخائفة جماعة آمنة مستقرة مستمكنة :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـــآوَاكُمْ وَأَيَّـــدَكُمْ بِنَـــصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦]

وبرزت جوانب جديدة في حياة الجماعة المسلمة اقتضتها الظروف الجديدة ، وبرزت بإزائها جوانب جديدة من النفس ، في حاجة إلى توجيه ، أو على الأقل في حاجة إلى تدريب عملي يؤكد التوجيه ويثبته ويعمق جذوره ..

وكانت البداية الرائعة هي استقبال الأنصار للمهاجرين ذلك الاستقبال الفريد في التاريخ .. إذا أفـــسحوا لهـــم صدورهم ، وديارهم ، وأموالهم بل وصل الأمر إلى التنازل عن (الفائض) من النساء للذين جاؤوا مـــن مكـــة بغـــير زوجات !

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيـــمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَـــةً مِمَّـــا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩]

كانت المؤاخاة التي عقدها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار تدريباً عملياً على (الإخوة الإسلاميّة) التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس المؤمنين بها : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ... ﴾ [الحجرات : ١٠] وكان تدريباً ناجحاً ، فــذاً في نجاحه ، فريداً في التاريخ .

وكانت كذلك تدريجياً عملياً على (التكافل) وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الإسلاميّة : القــادرون يكفلون غير القادرين . على أساس الأخوة في الله من جانب ، وعلى أساس التصرف في مال الله بما يرضي الله مــن جانب آخر .

إنّ العقيدة الإسلاميّة –والتربية الإسلاميّة كذلك– تربي المسلمين على أن المال الذي في أيديهم هو مــال الله في الحقيقة . هو الذي وهبه –وإن شاء أخذه– هو الذي ملّكه لمن ملكه له ، ومن ثم يخف في أنفسهم الشعور البــشري بالملك ، الذي يستبد بالناس في الجاهلية فيصبح جنوناً لا يترك صاحبه في راحة ؛ يريد أن يــستزيد دائمــاً لينــتفش ويستكبر بمقدار ما يزيد . أما في حس المسلم فالمال في يده نعم . ولكنه مال الله في الحقيقة . وقد أمــر الله بإنفــاق جانب منه للمحتاجين إليه من (الإخوة) في المجتمع الإسلاميّ . فينفق المسلم ذلك عن طيب خاطر –بمقدار رســوخ العقيدة ورسوخ التربية الإسلاميّة في نفسه– سواء في الزكاة المفروضة أو في التطوع الذي ليست له نسب مقررة ولا حدود ؛ ويتم بذلك التكافل الذي تتسم به حياة المسلمين ، سواء في داخل الأسرة أو في المجتمع على اتساعه ؛ ويــتم التخفف من الشح ، وهو ركيزة من ركائز التربية الإسلاميّة .

ثم يبدأ الجهاد في سبيل الله ..

وهو وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة واحتمال المشقات ، في حاجة إلى تربية وتدريب جديد ..

بالأمس كان وجه العقيدة –ووجه التربية كذلك– هو احتمال الأذى الذي تصبه الجاهلية على المؤمنين . وقــد اجتازت الجماعة الأولى ذلك الوجه بثبات باهر ونجاح باهر ، بتوجيهات القرآن وتوجيهات الرسول ﷺ وسهره على رعايتها وتقويمها وتثبيتها .

واليوم أصبح وجه العقيدة –ووجه التربية كذلك– هو احتمال الأذى في سبيل الذود عن العقيدة من الأعداء .

قد يكون بينهما جانب مشترك . ولكنه على وجه التأكيد لون جديد من التربية والتدريب والإعداد ..

قد يحتمل الإنسان أذى مصبوباً عليه من الظالم .. ولكن أن يقاتله ويعرض نفسه للموت في القتال هذا أمر آخــر ..

حقيقة إنّ القتال يرتكز على ذات القاعدة التي ربيت من قبل في محنة الابتلاء :

إنّ الموت والحياة بيد الله ، والضر والنفع بيد الله ، لا يملكهما غيره وإن وَهِمَ البشر غير ذلك .

وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحرص المؤمن عليها ، وأن متاع الدنيا قليل لا يساوي الحرص عليه .

وحقيقة إنّ الرصيد الذي اكتسبه المؤمنون في المحنة ، من صلابة العود ، والاستعداد للانخلاع من متـــاع الأرض حين يدعو الداعي إلى ذلك ، هو ذات الرصيد المطلوب للقتال ..

ومع ذلك فالأمر محتاج إلى توجيه جديد وتدريب جديد ، لأن احتمال الأذى كما قلنا شـــيء ، والخـــروج إلى المخاطر شيء آخر .

والدليل على أنه درس جديد وتدريب جديد هو كل تلك الآيات التي تحرض المؤمنين على القتال في السور المدنية الطويلة بصفة خاصة : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، ثم الأنفال والتوبة .. وسورة آل عمران كلـــها –علـــى طولها– حديث واحد منوّع عن معركة لا إله إلاّ الله ، وما حول المعركة من معان متشعبة الأطراف ..

والدليل كذلك ما جاء في بعض هذه الآيات بصفة خاصة :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ۞ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٣-١٤٨]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيـــقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ... ﴾ [النساء : ٧٧-٧٨]

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَــقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٣]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : ٣٨]

ولقد كان تدريباً شاقاً وطويلاً ومجهداً حتى استوت عليه النفوس .. وكان من آثاره ذلك النصر الكاسح الذي لا مثيل له في التاريخ حين امتدت الدولة بالفتوح في أقل من عشر سنوات بعد وفاة الرسول ﷺ فشملت العراق وفارس والشام ومصر .. ثم امتدت في أقل من خمسين سنة فشملت من الهند إلى الشمال الأفريقي ..

وكان القرآن يلقي الدرس يستحث المسلمين على القتال في سبيل الله ، ويرسم الصور المشرقة للــشهداء الــذين قتلوا في سبيل الله كما يحذرهم من التولي يوم الزحف ، أو القعود الذي لا يصدر إلاّ عن المنافقين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ۞ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَــاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٥-١٦]

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَــا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۞ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَــنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٦-١٦٨]

كما كان الرسول ﷺ يحرض المؤمنين على القتال ويشجعهم عليه ويحبب إلــيهم الاستــشهاد في ســبيل الله ، ويعطيهم من نفسه القدوة في الشجاعة والإقدام والثبات والطمأنينة في القتال .

* * *

ثم تأتي مع نمو الدولة ، وتزايد ألوان النشاط فيها ، وتعدد الملابسات المارة بها ، تدريبات تربوية جديدة يتنــــزل بها القرآن أو يوجه إليها رسول الله ﷺ ، كلها يرسخ العقيدة ، وكلها يرسخ منهج التربية الإسلاميّة في النفوس .

فثمة توجيهات لطاعة القيادة ، والالتجاء إليها في المشكل من الأمر ، لكي لا تنتشر الفوضى بالتصرفات الفردية غير المنضبطة :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ٨٣]

وتوجيهات لتوقير القيادة واحترامها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢]

وتوجيهات لاستئذان القيادة في الانصراف :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٢-٦٣]

وتوجيهات أخلاقية لما ينبغي أن يكون عليه تعامل الإخوة المسلمين في المجتمع المسلم كالتي تحتويها سورة الحجرات ، من الإصلاح بين المتخاصمين ، والضرب على يد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وتحريم سخرية المؤمنين بعضهم من بعض أو لمز أنفسهم ، أو التجسس ، أو الغيبة ..

وتوجيهات خلقية أخرى بعدم دخول البيوت إلاّ باستئذان ، وبغض البصر ومنع التبرج والفتنة وإبداء المرأة لزينتها كالتي تحويها سورة النور .

وتوجيهات سياسية بعدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء كما جاء في سورة المائدة .

وتوجيهات سياسية أخرى تبين مخطط اليهود والنصارى في محاربة الإسلام وواجب المسلمين نحو هذا المخطط ، من عدم اتباعهم ، وعدم اتخاذ بطانة منهم ، وعدم الاستجابة لفتنتهم كما جاء في سورة آل عمران .

وتوجيهات سياسية ثالثة بالنسبة للمنافقين، والدور الذي يقومون به في المجتمع الإسلاميّ ، وضرورة الابتعاد عنهم وعدم الاختلاف في شأنهم ، وعدم الدفاع عنهم وعدم توليهم كما جاء في سورة النساء بصفة خاصة ، وكذلك في البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والحشر والمنافقون .. وسور أخرى كثيرة ..

وتوجيهات اجتماعية بحماية الضعفاء في المجتمع المسلم من نساء أو ولدان أو رجال ضعفاء ، ويتامى ، وأرقاء كما جاء في سورة النساء والبقرة

وتوجيهات اقتصادية كتحريم الربا ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل كما جاء في سورة البقرة وسورة النساء ..

وعديد من التوجيهات في كل مناحي الحياة التي كانت تنمو بسرعة في المجتمع المسلم وتحتـــاج إلى توجيهـــات متلاحقة لبيان سبيل التعامل الصحيح فيها ..

وبهذه التوجيهات من القرآن ومن الرسول ﷺ ، ومن متابعة الرسول ﷺ لتنفيذها ، ومراقبتـــه الدائمـــة لهـــا ، ومصاحبته للصحابة مصاحبة الصديق المحب الموجه في رفق ، الشديد في الحق ، الملهم بأحوال النفوس وخير الطـــرق للدخول إليها ..

بهذا كله تمّ منهج التربية الإسلاميّة لهذه الجماعة كما أراده الله ، وكما وجه رسوله ﷺ إليه ، على القاعدة الأولى التي نشأت في مكة : قاعدة حب الله ورسوله . والطاعة لله ورسوله . والتلقي من عند الله ورسوله ورفض التلقي من كل مصدر سواه ..

تلك كانت القاعدة الأولى التي انبنى عليها كل ما جاء بعد ذلك من دروس التربيـــة ودروس العقيـــدة ، حـــتى استقامت تلك النفوس على القمة السامقة ، ووقفت هناك وقفتها المشرقة العالية ، تنير الطريق لكل البشرية :

﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ... ﴾ [آل عمـــران : ١١٠]

﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَـــهِيدًا** ... ﴾ [البقـــرة : ١٤٣]

ولقد كان جهداً جهيداً ما بذل في تربية هذه الأمة ، وما بذلته هذه الأمة من نفسها لتـــستقيم علـــى تربيتـــها الإسلاميّة ..

جهد لم يخل من عثرات في الطريق وكبوات ..

فقد عثروا يوم أحد بما استوجب تنـــزيل سورتين كاملتين : سورة آل عمران وسورة الأنفال .

وعثروا يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وولوا مدبرين

وشق عليهم القتال يوم الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديدا

قال حذيفة :

« وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ اللَّيْلِ هَوِيًّا[1] . ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ : **مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ** -يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ- **أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ** ؟ فَمَا قَامَ رَجُلٌ ثُـــمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنْ اللَّيْلِ . ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ : **مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ** -يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ- **أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ** ؟ فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ ، مَعَ شِـــدَّةِ الْخَـــوْفِ ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ . فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي ... »[2]
رواه الإمام أحمد .

وعثروا في حديث الإفك حتى شق ذلك على الرسول ﷺ شهراً كاملاً إلى أن نزل الوحي بتبرئة عائشة رضي الله عنها .

ولكن هذه كلها كانت دروساً في التربية .. التربية بالأحداث .. كل حدث من هؤلاء كان يهز المجتمع المـــسلم كله هزاً عنيفاً ، ثم تتنـــزل الآيات فتلقي الدرس و(الحديد ساخن) فيترك الدرس طابعه بعد ذلك لا يزول ..

ولكن مع هذه العثرات -البشرية على أية حال- كانت تلك النماذج الفائقة الفريدة في التاريخ :

النموذج الذي أنزل الله فيه :

﴿ ... **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ... ﴾ [الحشر : ٩]

ونموذج تحريم الخمر ..

لما حرمت الخمر أرسل رسول الله ﷺ منادياً ينادي في طرقات المدينة : أيها الناس . أَلاَ إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ .. (رواه البخاري) وكانت كلمة واحدة وكان فيها الكفاية .. ورَوَوا عن أنفسهم قالوا : فقام كل واحد إلى ما كان في بيته من زقاق وأدنان فأراقها في الطريق ، حتى بقيت طرقات المدينة أياماً يشم منها رائحة الخمر . **ومن كان في فمه شربة رماها** . نعم هي الطاعة الكاملة والامتثال الكامل . حتى من كان في فمه شربة قذف بهـــا و لم يبلعهـــا .. وإن أحداً لا يراه إلاّ الله . ودول (متحضرة) تبذل جهدها في مقاومة السكر الزائد عن الحد ، الذي يؤدي إلى ارتكـــاب الجرائم من قتل واغتصاب وحوادث طريق ، فلا يكون من جهدها الجاهد إلاّ زيادة السكر وزيادة المخمورين !

ونماذج الجهاد في سبيل الله ..

الرجل الذي يقول : أليس بيني وبين الجنة إلاّ أن أقتل هذا الرجل أو يقـــتلني ؟! ثم يلقـــي بنفـــسه في المعركـــة فيستشهد ..

والذي يأخذ تمرات في يديه ، ثم يأخذ في أكل تمرة منها ، فإذا الجنة تشده إليها ، ورغبة الاستشهاد في سبيل الله تملك عليه نفسه فيتعجل الذهاب ولا يصبر حتى يكمل تمرته ، فيلقيها عنه وهو يقول : إنّ هذا أمر يطول .. ويذهب إلى الجنة التي تناديه ..

نماذج ونماذج ونماذج لا تتسع لها هذه السطور ..

ولكن حسبنا أن نقول إنّ هذه الجماعة التي ربيت على هدي القرآن ، وعلى عين الرسول ﷺ ، هي التي كتبـــت التاريخ .

---

(١) هوياً من الليل : قطعة منه .

(٢) نقلنا قول حذيفة من مسند الإمام أحمد وكان مكانه في الأصل فارغاً ، ولعلنا نكون قد وفقنا إلى ما يريده الأخ الجليل من حيث المصدر المنقول عنه القول ، والمقدار اللازم نقله منه ..